القيم الأخلاقية المحمودة ، والقيم الأخلاقية المذمومة في سورة يوسف عليه السلام

إعـــــداد

د. محمد ابراهيم مصطفى الخطيب

أستـــاذ مشـــارك

جامعة الإسراء الخاصة

كلية العلوم التربوية .

المملكة الأردنية الهاشميـــة

عمّان

المقدمـــة :-

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيد البشر أجمعين ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبـع هـداه وسـلك طريقه إلى يوم الدين ، ربىّ أصحابه وأتباعه وكل أمته على النهج السليم والطريـق المسـتقيم ، فكانت مدرسته خير مدرسة انتهجت طريق الحق ، شعارها إياك نعبد وإياك نستعين ، أما بعد :

فالمجتمع الإسلامي مجتمع قيمي ، تسوده قيم شتى مناطها الإيمان بالله تعـالى ، وللقـرآن الكريم والحديث الشريف أثرهما الفعال في غرس القيم الأخلاقية المحمودة ، التي يجـب علـى الإنسان إتباعها وتطبيقها ، ومعالجة القيم الأخلاقية المذمومة التي يجب على الإنسان الابتعاد عنها وتجنبها ؛ حفاظاً على دينه ودنياه وآخرته ، فتناول الباحث سورة يوسف عليه السلام ، متـدبراً متفكراً بالقدر الذي يسّره الله تعالى إليه ، وقد تعرض للقيم المذكورة من خلال الاسـتقراء التـام لآياتها الكريمة ، مستعيناً – بعد الله سبحانه وتعالى – بما تيسر له مطالعته مـن كتـب التفسـير والكتب الدينية الإسلامية الأخرى ، لا سيما تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ، وتفسير سـيد قطب في ظلال القرآن .

ولقد جاء البحث على إيجازه منبهاً على حقائق عظيمة شملتها هذه السورة المباركة ، فهـي منهج تربوي متكامل للإنسان المسلم ، تضمنت الإيمان بالله وقضاءه وقدره ، وعمل الصالحات ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، مما دفع الباحث لاستقراء هذه الحقائق والتعرف عليها ، ويرتكز هذا البحث على مفهومين أساسيين هما : القيم ، والأخلاق ، لذا كان لزامـاً توضـيحهما بشيء من الإيجاز ، فالقيمة معنى وموقف وموضع التزام إنساني يختارها الفرد بذاته للتفاعل مع نفسه ومع البيئة الكلية التي يعيش فيها ويتمسك بها وهي تتألف من اتحاد مكونين هما : المكـون الفعلي ، والمكون الوجداني ، غير أن توافر هذين المكونين لا يكفي وحده إذ أنهمـا لا يشـكلان سوى قيمة جزئية أو قيمة كامنه ، فالقيمة لا تكتمل لأغراض وظيفية وانجازيـة ، إلا بانضـمام عنصر ثالث هو الممارسة أو السلوك الذي ينبغي أن يتسق مع القيمة الكامنة ، بحيث يتلاحم مـع الالتزام الفعلي والوجداني (١) وعرف بلبشير القيم بأنها " ميزان تصنف بـه الأشـياء ايجابيـاً وسلبياً ، وتقدر به المواقف حسب دواعي ومؤشرات معينة " (٢) فالقيمة سمة إن وجدت في شيء ما جعلته مرغوباً فيه ، فالأشياء والسلوكات

لا تبدو في حياة الإنسان بوجه واحد ، فمنها ما هو ملائم ، ومنها ما هو غير ملائم ، ومنها ماله جاذبية ، ومنها ما هو منفّر يبعث على الاشمئزاز .

إذن فالسلوك الإنساني يستند في أساسه على التفضيل والاختيار ، ويرمي إلى تحقيق مقاصد وغايات ، ويعمل على تجنب أخرى ، ومن ثم فكل سلوك انساني وراءه قيمـة تشـكل دافعـاً أو محركاً له ، والمعنى أن اختيار السلوك الإنساني قد يكون مرهوناً بالبواعث من جهة ، أو مرهوناً بالنتائج المترتبة عليه من جهة ثانية . (٣)

أما الأخلاق ، فهي مشترك إنساني عام من القيم والفضائل التي جبـل الله النـاس عليهـا، فأصناف البشرية كلها تعترف بالمعاني الفاضلة والأخلاق العالية ، وأصول هذه الأخـلاق قـدر متفق عليه ، بل هناك فلسفة خاصة للأخلاق والفضائل في كل أمة وتـراث وعصـر وثقافـة ، فالصدق والكرم والوفاء والعدل والصبر والتسامح معانٍ محمودة في كل القيم الإنسـانية ، وفـي مقابل ذلك معانٍ مذمومة فيها : كالكذب والظلم والعقوق والبخل والغدر وشهادة الزور والحسـد وغيرها ، والأخلاق فعل وممارسة ، لأننا نجد اليوم كثيرين يتحدثون عن الأخلاق ، وقد يُلقـون برامج ومحاضرات ودورات ، ويكتبون كتباً ، لكن حين ننظر إلى الممارسات تجد بعداً عن هذا

التنظير . (٤) وهؤلاء ينطبق عليهم معنى قوله سبحانه وتعالى : " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (٥) .

ويشتمل البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة :

المقدمة : أهمية الموضوع وسبب اختياره .

المبحث الأول : تعريف بسورة يوسف عليه السلام .

المبحث الثاني : القيم الأخلاقية المحمودة .

المبحث الثالث : القيم الأخلاقية المذمومة .

الخاتمة : ملخص البحث وتوصياته .

مع الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى بالتوفيق فيما تم عرضه ، والعفو عن الزلل ، إنه خير مأمول وأكرم مسؤول ، فهو وحده المستعان وعليه التكلان .

المبحث الأول : تعريف بسورة يوسف عليه السلام ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : بين يدي السورة .

سورة يوسف عليه السلام إحدى السور المكية الا الآيات (١ و ٢ و ٣ و ٧) فمدنية ، وآياتها (١١١) آية وقد نزلت بعد سورة هود (٦) ، ويرى سيد قطب أن السورة مكية بجملتها ، على خلاف ما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١و ٢ و ٣ و٧) منها مدنية ، ذلك أن الآيات الثلاثة الأولى هذا نصها : " الر تلك آيات الكتاب المبين ، إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله من الغافلين " وهذه الآيات هي مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف عليه السلام ، ونص الآية التالية في السياق هو : " إذ قال يوسف لأبيه : ياأبتِ إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، رأيتهم لي ساجدين " وكذلك هذه الحروف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً .. هو كذلك من جو القرآن المكي ، ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذي كانوا يدّعون أنّ أعجمياً يعلمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقرير أنه وحي من الله ، كان النبي صلى الله عليه وسلم من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته ، (٧) وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله : يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر ، وفي السجن ، وفي تأمر النسوة ، حتى نجّاه الله من ذلك الضيق ، والمقصود بها تسلية النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما مر عليه وعلى المؤمنين من الشدائد والنكبات ، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيريه :زوجه الطاهر الحنون " خديجة " وعمه " أبا طالب " الذي كان له خير نصير وخير معين ، والسورة الكريمة أسلوب فذ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وأدائها ، وفي قصصها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري – برقتها وسلاستها – في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وان كانت من السور المكية ، التي تحمل – في الغالب – طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت طرية ندية ، في أسلوب ممتع لطيف ، سلس رقيق ، يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال عطاء : لا يسمع سورة يوسف عليه السلام محزون إلا استراح إليها . (٨)،

قال العلماء : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن الكريم وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر

مخالف على معارضة ما تكرّر ، ولا على معارضة غير المتكرّر ، والإعجاز لمن تأمل (٩) وروى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس (١٠)

إنّ قصة يوسف – كما جاءت في هذه السورة – تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الغني للقصة ، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً ، ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه ، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا النهج من الناحية الفنية للأداء ، ذلك الأداء الصادق ، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة ، المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة ، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستنقعاً من الوحل يسميه الواقعية . وقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري ؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسي ، ودون أن تزوّر – أي تزوير – في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف ، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف ، فإنها لم تسف قط لتنشئ ذلك المستنقع المقزز للفطرة السليمة ، ذلك الذي يسمونه " الواقعية " أو يسمونه أخيراً " الطبية " . (١١)

المطلب الثاني : الوحدة الموضوعية لسورة يوسف :

لو تأملت سورة يوسف عليه السلام وقرأت آياتها ، لوجدت أنها مترابطة في أحداثها من حيث التسلسل الموضوعي ، شخصياتها نامية أساسية ، يبدأ دورها من بداية السورة وينتهي بنهايتها ، حيث أن ما يدور في نفوسها من مشاعر وأحاسيس ثابتة ، لم يغيرها الزمن ، ولم تبدلها الأحداث والوقائع ، فالذي فُطِر على البغضاء والحقد استمر على سجيته وهذا ما دلت عليه الوقائع والأحداث المتتابعة في السورة ، فإخوة يوسف لم يغيرهم واقع الحال ولا الزمان ، في كل موقف لهم إساءة مع أخيهم يوسف وأبيهم وآيات السورة الكريمة تدل على ذلك ، في الجانب الآخر يوسف الذي فُطِر على حب الخير والتسامح والصبر والمحبة من اللحظة التي طُرح فيها في الجب إلى قوله لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، وأنت تقرأ السورة تعيش جواً واحداً ، وتقرأ موضوعاً واحداً ، لا يتخلله التفريعات ، ولا الانتقال إلى أمر آخر ثم تعود إلى الموضوع ، وإذا كان هذا دأب بعض السور القرآنية ، فإنك تشعر بوحدة الموضوع في سورة يوسف ، بنيتها متكاملة مترابطة ، كما هو الحال في بعض السور القرآنية ، كسورة " ق " وسورة " الرحمن " إذ تظهر وحدة الموضوع وهذا لا يخفى على المتدبر والمتأمل فيها .

يقول سيد قطب : السورة ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة ، فالقصص القرآني – غير قصة يوسف – يرد حلقات ، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها ، حتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً ، أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة ، وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً . هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ، ويؤديها أداءً كاملاً ، ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف ، وتنتهي بتأويلها ، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى ، وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه ؛ فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة ، والتعقيبات التي تلتها . (١٢)

المبحث الثاني : القيم الأخلاقية المحمودة :

أصل الأخلاق المحمودة : الخشوع وعلو الهمة ، وهي التي أقرها الشرع ، ولا يتعارض مضمونها مع العقيدة الإسلامية ، كالصبر ، والشجاعة ، والعدل ، والمروءة ، والعفة ، والجود ، والحلم ، والعفو ، والصفح (التسامح) والإيثار ، وعزة النفس عن الدناءات ، والصدق ، والنصيحة ، وقول الحق ، والاستعانة بالله ، وبعض هذه الأخلاق سيتعرض لها الباحث بالتوضيح على ضوء التحليل والاستقراء لسورة يوسف عليه السلام ، وتتمثل في المطالب الآتية :

المطلب الأول: النصيحة:

من الأسس العامة التي ترجع إليها مجموعة من ظواهر القيم المحمودة ، خلق حب العطاء ، ولهذا الخلق آثار اجتماعية كريمة عظيمة ، ومنه عطاء النصيحة ، فالإنسان الجواد كريم النفس لا يبخل على أخيه الإنسان بأي نصيحة تنفعه في دينه أو دنياه ، بل يعطيه نصحه الذي ينفعه مبتغياً به وجه الله تعالى .

وقد ارتقى مفهوم النصيحة عند الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كان مساوياً للدين كله ، ولذلك عرّف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الدين بأنه النصيحة ، فقال : " الدين النصيحة " (١٣) .

وكما ورد عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " الدين النصيحة " قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " رواه مسلم (١٤) ولذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أول الأركان الأساسية ، التي تقوم عليها الدعوة إلى الله ، وحماية المجتمع المسلم من الانحراف ، وظاهر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة ، وهو عطاء فيه تضحية ، إذ قد يعرّض صاحبه لما يكره من قبل الناس (١٥) قال الله تعالى : " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون " (١٦) وقد جاءت النصيحة على لسان سيدنا يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام في القرآن الكريم في قوله تعالى : " قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين "(١٧) فقد أدرك سيدنا يعقوب عليه السلام بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لسيدنا يوسف عليه السلام ، لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك ، ولهذا نصحه بألا يقصص رؤياه على إخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم – غير الشقيق – فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم

فتمتلئ نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمراً يسوؤه (١٨) يقول الصابوني : فهم سيدنا يعقوب (عليه السلام) من رؤيا يوسف عليه السلام أن الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه من حسد إخوته ، فنهاه أن يقص رؤياه عليهم (١٩) .

فامتثل يوسف أمر أبيه ولم يخبر إخوته بذلك بل كتمها عنهم (٢٠) ، ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث " استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذي نعمة محسود " (٢١) .

المطلب الثاني : الأمانة :

الأمانة أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره ، وهي ضد الخيانة والأمانة في جانبها النفسي خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق ، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه

دون أن يكون عرضه للإدانة عند الناس ، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره ، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضه للإدانة عند الناس .

فمن تهيأ له أن يهضم ديناً عليه دون أن يكون لدى الدائن ما يثبت به حقه ، فعف عن ذلك ولم يفعل وأدى ما عليه من حق كاملاً غير منقوص فهو أمين حقاً .

ولا تقتصر الأمانة على العفة عن الأموال ، بل العفة عن كل ما ليس للإنسان به حق هي أيضاً داخلة في حدود الأمانة ، أو أثر من آثارها .

فالعفة عن العدوان على الأعراض من الأمانة ، والعفة عن الغلول من الأمانة ، وكف العبد نفسه عما حرم الله عليه من الأمانة ، فمن تجاوز حدود الإذن الإلهي فاعتدى على ما ليس به حق فقد خان الأمانة (٢٢) .

وها هي إمرأة العزيز تعتدي على ما ليس لها به حق ، تعتدي على شرفها ، وتعتدي على حقوق الزوجية ، وتعتدي على أخلاق غيرها ، على من ملكت جسده في خدمتها ، ولم تملك خلقه وإرادته ، فقد طلبت من يوسف عليه السلام أن يواقعها ، بعد أن أحاطت لهذا الأمر ، بأن غلقت الأبواب السبعة لقصرها ، ثم دعته لنفسها ، فكان رده على هذه الإثارة ، أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه ، فإنني لا أخون من أكرمني وتولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه ، يقول سبحانه وتعالى : "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون " (٢٣). فأخذت تغازله بذكر محاسنه ، وهو يراجعها ، إلى أن همّ بها ، ولا خلاف فإنّ همها كان لإرتكاب المعصية وخيانة الأمانة ، فأما يوسف لما رأى برهان ربه ما همَّ ، لأنه لم يواقع ما همَّ به ، وهذا لوجود العصمة للأنبياء (٢٤) قال تعالى : " ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين " (٢٥) .

ويقول سيد قطب (٢٦) في هذا المجال أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف ، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعدما أوتيهما ، الذي خطر لي أن قوله تعالى : " ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه " . هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم ، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الإعتصام بالله في النهاية والنجاة ، ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة ، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة ، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك ، فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والإعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً ، فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبي .

المطلب الثالث : الصبر :

الصبر قوة خلقية من قوى الإرادة ، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام ، وبالصبر يتصرف الإنسان في الأمور بعقل واتزان وبحكمة في معالجة مشكلات الحياة ، وهو ثمرة من ثمرات الخضوع إلى الله والرضا فيما تجري به المقادير ، ولذلك كان الصبر ضياء ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي مالك الحارث الأشعري إذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الطهور شطر الإيمان ، والحمد

لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها " رواه مسلم (٢٧) يضاف إلى ذلك أيضاً أن الصبر هو السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من إصلاح خصمه أو الظفر به ، وأنه أعظم خلق نفسي وضع موضوع الابتلاء في ظروف هذه الحياة

الدنيا ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (٢٨) .

وقد أبتلي العديد من الرسل والصالحين والمكرمين عند الله وتحملوا المتاعب والمشقات ، وصبروا على مقادير رب العالمين ، منهم يعقوب عليه السلام الذي أصيب بمكروه في ولديه ، وابيضت عيناه من الحزن وتلقى ذلك بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم ، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أعطي على يوسف أجر مائة شهيد ، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام (٢٩) . يقول تعالى : " وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . (٣٠)

ومنهم يوسف عليه السلام ، فسيرته مليئة بالأحداث المثيرة ، ويتراءى لنا ذلك من غدر إخوته به ، بطرحه في الجب ، ونكرانهم له عندما أخرج من الجب ، بل وصفوه بالعبد الآبق ، وإجباره الاعتراف لهم بالعبودية ، وبيعه بثمن بخس ، وهو صابر محتسب معالجاً الأمور بعقل واتزان وحكمه ، فذلك ، قوله تعالى : " وشروه بثمنٍ بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين " (٣١) .

وأما الابتلاء الثاني الذي تعرض له يوسف عليه السلام (كيد النساء) ، وصبر واستعاذ بالله من الكيد ، فاستجاب له في قوله تعالى : (فاستجاب له ربه) لمّا قال : (وإلا تصرف عني كيدهن اصب إليهن وأكن من الجاهلين) (٣٢) ، وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته ، الذي لا يغتر بعصمته ؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته ، يعاونه على ما يعترضه من فتنه وكيد وإغراء (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) الذي يسمع ويعلم ، يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء (٣٣) قال ابن عباس ووهب : إن يوسف عليه السلام من الصابرين ؛ لصبره في الجب ، وفي الرق ، وفي السجن ، وفي صبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة ، كما في قوله تعالى : (نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) أي ثوابهم ، أو كما قال ابن عباس : المعنى الصابرين (٣٤)

المطلب الرابع : الصدق :

يعرف الصدق بأنه قول الحق ، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة ، فالأعمال الصادقة هي الأعمال التي تكون دلالاتها التعبيرية مطابقة لما في نفس فاعلها وقلبه ، وهي التي ليس بينها وبين ما يخفيه فاعلها في نفسه وقلبه منافاة ولا تعارض (٣٥) قال الله سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (٣٦) والمؤمن حريص دائماً على أن يكون من الصديقين لأن ذلك طريقه إلى الجنة ، بل من الموسومين بإشارة الصدق عند رب العالمين ، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وأن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .. متفق عليه

.. (٣٧) وقد حث رسولنا الكريم على تحري الصدق مهما كانت الصعوبات والسلبيات في الدنيا ؛ لأن في
الصدق نجاة للمسلم يوم الحساب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون . وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تحروا الصدق ، وإن رأيتم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة ، وتجنبوا الكذب ، وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة " (٣٨) .

فالله سبحانه وتعالى ، منح الإنسان العقل المفكر ؛ ليعرف الصدق ومحاسنه ، ويعرف الكذب ومضاره ، مهما كانت عقيدته ، أو مكانته الاجتماعية ، لأنه لا بد له أن يملك نبضة حية من ضميره ، فالأحداث تدل على أن يوسف عليه السلام كان صادقاً مع نفسه التي آلت عليه ألا يخرج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ، ولو كان في ذلك هلاكه وبقائه في السجن إلى ما شاء الله له . يقول تعالى : (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) (٣٩) وهنا سيدنا يوسف عليه السلام لم يجب دعوة الداعي ، والتمس العذر في ذلك بطلبه في قوله تعالى : (فاسأله ما بال النسوة) فذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفي الكلام محذوف ، أي فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز ، فدعاهن (فقال ما خطبكن) أي ما شأنكن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها ، وهنا تظهر الحقيقة بصدق هؤلاء النسوة (قلن حاش لله) أي معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) أي زنى (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) لما رأت إقرارهن ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها .

والمعنى بانت حصة الحق من حصة الباطل (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وهذا القول منها ، إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ، لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه ، فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار . (٤٠)

المطلب الخامس : العفة :

العفة : هي كف النفس عن المحارم وعمّا لا يجمل بالإنسان فعله ، ومنها : العفة عن اقتراف الشهوة المحرمة ، وعن أكل المال الحرام ، وعن ممارسة ما لا يليق بالإنسان أن يفعله مما لا يتناسب مع مكانته الاجتماعية .

ولدى تحليل دوافع العفة نجدها ترجع إلى أكثر من أساس خلقي ، وذلك لأننا إذا وضعنا المثيرات ، ونظرنا إلى دوافع النفس تجاهها ، ثم نظرنا إلى القوة الضابطة التي تضبط النفس عن تلبية دوافعها فيما لا يحل أو فيما لا يجمل بالإنسان فعله ، تكشفت لنا مجموعة من العوامل التي ترجع إلى مجموعة من الأسس الخلقية .

ولدى التحليل نلاحظ أن عدة عوامل قد تتدخل في هذا المجال ، منها الصبر ، ومنها الخوف من عاقبة تلبية الدافع ، ومنها الطمع بثواب الكف ، ومنها حب الحق الذي يجعل صاحبه يكفّ عما لا حق له به .

ولما كانت عفة يوسف عليه السلام عفة مستوفية كل شروطها وأركانها كانت من أعظم أمثلة العفة في تاريخ الإنسان ، ففي يوسف الرجولة والشباب والدافع القوي ، وفي امرأة العزيز الإثارة بكل قواها ، جمال ومنصب ، وإغراء كامل ، ودعوة ملتهبة ، وخلوة تامة ، وتهديد إن لم يستجب ، ومع استيفاء كل هذه العوامل القوية تبرز فضيلة العفة في يوسف عليه السلام ، فيضبط

نفسه بصبر منقطع النظير ، ويقاوم الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية ، ترفعاً عن الخيانة ، وطلباً لمرضاة الله ، وينتصر خلقه العظيم في معركة الدوافع والمغريات والتهديدات . (٤١)

وقد عرض القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز أروع عرض يبرز الساحة النفسية عند يوسف ، وساحة الإثارة بكل ملابساتها ، وقوة الضبط الخلقي الذي جعل يوسف عليه السلام يكف عما لا يحل له ، ويعطي أروع أمثلة العفة ، فيقول الله سبحانه وتعالى : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ، واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) (٤٢) .

إن في قصة يوسف عليه السلام وصموده أمام الإغراء درساً في العفة وفي مغالبة الشهوة والانتصار عليها مما يعتبر أعظم مثل يمكن أن يقتدي الكثيرون الذين يبتغون السمو الإنساني .

فشهوة الجنس هي تلك القوة العارمة التي خضع وركع أمامها بعض عظماء التاريخ ، ولكن الانتصار عليها هو مفتاح العظمة الحقيقية ولا سيما إذا لابستها تلك الظروف والإغراءات والتهديدات التي حصلت ليوسف عليه السلام . (٤٣)

المطلب السادس : قول الحق والإعتراف به :

من الظواهر التي ترجع إلى خلق حبّ الحق وإيثاره الاعتراف بالحق والإذعان له ، ومن البديهي أن من لا يعترف بالحق ولا يذعن له بعد ظهوره له واستبانته لأدلته ، محروم من جوهرة عظيمة أساسية ورئيسية من جواهر عقد الأخلاق ، ومصاب بداء قسوة القلب عن قبول دعوة الحق والاستجابة لنداء الخير والهداية .

فلو رأينا إنساناً اتهم بالجنون رجلاً عاقلاً ذكياً حصيفاً ، فإننا بالبداهة نصف هذا المتهم الظالم بأنه محروم من خلق كريم ، إذ جحد حقيقة واقعة يتصف بها الرجل الذكي العاقل الحصيف ، وأثبت له خلافها مما ليس فيه ، وشتمه بذلك . (٤٤)

فامرأة العزيز في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، قد جانبت الحق والحقيقة ؛ لا وجدت زوجها عند الباب ، ثم استعانت بأفكارها الشيطانية بقذف يوسف بأقبح المنكرات ، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع ، فأصبح الظالم مظلوماً ، والبريء متهماً .

إذ وجدت حيلة ومكيدة ، فقالت : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) وقد طلبت له السجن والعذاب الأليم (٤٥) لأنها محرومة من الخلق الكريم .

قال العلماء : لما برأت نفسها ؛ ولم تكن صادقه في جميع أحاسيسها ومشاعرها ، قال : (وهي راودتني عن نفسي) نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه ، قال نوف الشامي وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية ، فلما بغت به غضب فقال الحق . (٤٦) قال ابن كثير : لما وجدت زوجها عند الباب ، خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) أي فاحشة (إلا أن يسجن) أي يحبس (أو عذاب أليم) أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً : فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، و (قال) باراً صادقاً (هي راودتني عن نفسي) وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه . (٤٧) فحينئذٍ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يُعلم أيهما ، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه ، قد يعلمها العباد

وقد لا يعلمونها ، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام فبعث شاهداً من أهل بيتها يشهد بقرينه من وجدت معه فهو الصادق ، فقال : (إن كان قميصه قد من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين) لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها المعالج وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب (وإن كان قميصُه قُد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) لأن ذلك يدل على هروبه منها وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب (فلما رأى قميصه قُد من دبر) عرف بذلك صدق يوسف وبراءته وأنها هي الكاذبة فقال لها سيدها : (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها لمّا أرادت وفعلت ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام ، ثم أن سيدها لما تحقق الأمر قال ليوسف : (يوسف أعرض عن هذا) أي : اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلباً للستر على أهله (واستغفري) أيتها المرأة (لذنبك إنك كنت من الخاطئين) فأمر يوسف بالإعراض وأمرها بالاستغفار والتوبة (٤٨).

المطلب السابع : التسامح :

ومما أدب الله به رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يتحلى بخلق الصفح والتسامح ، وهو الإعراض عن مواجهة السيئة بمثلها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمل الناس صفحاً وتسامحاً ، يتلقى من قومه الأذى المؤلم فيعرض عن تلويمهم أو تعنيفهم أو مقابلتهم بمثل عملهم ، ثم يعود إلى دعوتهم ونصحهم كأنما لم يلق منهم شيئاً ، وفي تأديب الله لرسوله بهذا الأدب أنزل الله عليه في المرحلة المكية قوله تعالى في سورة الحجر : (فاصفح الصفح الجميل ، إن ربك هو الخلاق العليم) (٤٩) . وفي العهد المدني لقي الرسول صلى الله عليه وسلم من يهود أهل المدينة أنواعاً من الخيانة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله في سورة المائدة : (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) (٥٠) . فصبر الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم وعفا وصفح .

ومن ظواهر التسامح والصفح عن المسيئين وستر سيئاتهم موقف سيدنا يوسف عليه السلام ، عندما باعه إخوته لمالك بن دعر ، لم يكتفوا بهذا الإجراء ، بل نعتوه بأقبح الصفات لمن اشتراه بقولهم : إنه عبد آبق ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلاً ، وبمقابل هذه الصفات المذمومة ، كانت سماحة يوسف ، فلم يقابل السيئة بالسيئة ، بل بادلهم بالقول الحسن ، إذ قال : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذلتموني ، رحمكم الله وإن لم ترحموني . (٥١)

ويروي سيد قطب أن إخوة يوسف دخلوا مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد ، يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام : يقول الله سبحانه وتعالى : (فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مُزجاه ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين) (٥٢) ، عندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز ، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته ، فقد انتهت الدروس ، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال ، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة لهم ، فيعود بهم إلى
الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله : يقول الله تعالى : (قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) (٥٣) . ورن في آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته ،ولاحت

لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه في سمت عزيز مصر وأبهته وشياته ، والتمع في نفوسهم خاطر من بعيد : " قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ ... (٥٤) أئنك لأنت ؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير .. يقول تعالى : (قال : أنا يوسف ، وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (٥٥) .

مفاجأة ! مفاجأة عجيبة ، يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعه الجهالة .. ولا يزيد .. سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء ، أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا ، حليماً بهم وقد جهلوا ، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم: يقول تعالى: (قالوا : تا الله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين) (٥٦) اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان ، يقابله يوسف بالصفح والتسامح والعفو وإنهاء الموقف المخجل ، شيمة الرجل الكريم ، وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة ، كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة ، إنه كان من المحسنين . يقول سبحانه وتعالى : (قال : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين) (٥٧) لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم ، قد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور ، والله يتولاهم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين (٥٨) ، ما أجمل هذا الصفح ! وهذا التسامح ! من نفس كاظمة للغيظ ، عامرة بمحبة الله سبحانه وتعالى .

المطلب الثامن : الاستغفار :

إن الإنسان خطاء ، غير معصوم من الخطأ ، يقترف الذنوب في حق نفسه ، وفي حق غيره ، وفي مقابل ذلك ، فإن باب التوبة إلى الله مفتوح ، روى الترمذي وابن ماجه والدارمي بإسناد حسن عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون "(٥٩) ولذلك دعا الله عباده أن يستغفروه ويتوبوا إليه ، ودعا الرسل الناس ، إلى أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه ، يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين) (٦٠) ومهما كانت الذنوب فإن الله يغفرها جميعاً ، ما دام العبد يتوسل إلى الله بالمغفرة ، مستغفراً من ذنبه ، صادقاً بالرجوع إلى الله ، صالحاً في نفسه ، يقول الله سبحانه وتعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) (٦١) ففي هذه الآيات الكريمة ينادي الله عباده الذين أسرفوا على أنفسهم أن ينيبوا إليه بالطاعة والعمل الصالح ، وأن يستغفروه ولا يقنطوا من رحمته ، ويطمعهم بأنه يغفر الذنوب جميعاً ، فأبواب الرجاء مفتوحة للذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن لطائف هذا النص أن الله تبارك وتعالى ينادي فيه عباده الذين أسرفوا على أنفسهم بحرف نداء البعيد (يا) إشارة إلى أنهم بإسرافهم على أنفسهم قد ابتعدوا عن الله ، فهو يناديهم ليرجعوا إليه ، ويقربوا منه بالتوبة والعمل الصالح ، ثم ينهاهم عن القنوط من رحمته ، ويؤكد لهم أن الله يغفر الذنوب جميعاً . (٦٢)

وها هم أخوة يوسف قد أسرفوا على أنفسهم بفعل ما يغضب الله ، ويؤذي الآخرين ، فقد كانوا سبباً في معاناة يوسف عليه السلام صنوفاً من المحن والابتلاءات : محنة كيدهم له ، ومحنة

الجب والخوف والترويع فيه ، ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله ، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، ومحنة السجن ، ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين كانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها التي صبر عليها يوسف – عليه السلام – (٦٣) ، كما آذوا أباهم فكانوا سبباً في فقدان بصره من كثرة البكاء على فراق يوسف ، كما اتهموه بالجنون والابتعاد عن طريق الصواب ، يقول سبحانه وتعالى (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) (٦٤)

فلما رجع إخوة يوسف من مصر وانكشفت الحقيقة ، سألوا أباهم المغفرة والمسامحة ، يقول تعالى: (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) (٦٥) لأنهم ادخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله ، وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه " (٦٦)

فقال يعقوب مجيباً لطلبهم ومسرعاً بإجابتهم ، يقول الله سبحانه وتعالى على لسان يعقوب عليه السلام : (قال : سوف استغفر لكم ربي إنه الغفور الرحيم) (٦٧) ، يقول سيد قطب : ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئاً من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفوا ويسكن ويستريح

وحكاية عبارته بكلمة " سوف " لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم . (٦٨) قال ابن عباس : أخَّر دعاءه إلى السَّحر ، سحر ليلة الجمعة ، وعن عامر الشعبي قال : " سوف أستغفر لكم ربي " أي أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربي ، لكن في حقيقة الأمر أن يوسف عليه السلام كان حليماً موفقاً ، يقول سبحانه وتعالى على لسان يوسف : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) (٦٩) والتثريب يعني التعيير والتوبيخ ، أي لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم ، وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة ، وحق الأخوة ، ولكم عندي العفو والصفح ، وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بُعضَادَتَي الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناس بالبيت فقال : " الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده " ثم قال : " ماذا تظنون يا معشر قريش " قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قدرت ؛ قال : " وأنا أقول كما قال أخي يوسف " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم " (٧٠)

وقال عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم " فهو يطلب لهم الغفران ويستغفر لهم الله عما فعلوه به ، وكذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم طلب لقومه كما طلب يوسف عليه السلام لأخوته ، كما قال يعقوب عليه السلام " سوف استغفر لكم ربي " (٧١)

المطلب التاسع : الاستعانة بالله وعدم الاستعانة بغيره

إن مما يجب أن نجعله على ذكر منا ليتأكد في أذهاننا ؛ أن الدين كله داخل في العبادة ، ذلك لأن الدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال : ندين الله وندين لله ، أي نعبد الله ونطيعه ونخضع له ، إذن فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له .

فالعبادة تجمع أصلين ، هما غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، كذلك الاستعانة تجمع أصلين هما :

١- الثقة في الله والاعتماد عليه : وهذا واضح في توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم – لابن عباس رضي الله عنهما – في قوله له : " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله "

٢- التوكل : وهذا المعنى يلتئم من أصلين : من الثقة والاعتماد ، وهو حقيقة " إياك نعبد وإياك نستعين " ومن ثمار هذه الأصلين – وهما العبادة والاستعانة – يمكننا أن نتعرف على أفضل الخلق صلة بالله وقرباً منه وهم: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، وعلى ذلك قرر ابن قيم الجوزية : أن العبادة بلا استعانة نقص (٧٢)

قال الله تعالى في سورة يوسف عن يعقوب أنه قال : (فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون) (٧٣) فهو قد طلب العون من الله ، لأنه كان يتعبد لله ويصرف له هذه العبادة ، ويقول : أنا أستعين بالله على ما أنا فيه من البلاء ، إذ البلاء يستلزم صبر ورضا ، والصبر والرضا عبادة ، فلا تكون إلا بالاستعانة ، فاستدل أهل العلم أيضاً بهذه الآية على أن فيها دلالة على أن الاستعانة عبادة ، يقول الله سبحانه وتعالى : في افتتاح السورة التي لا يتركها أحد في صلواته : (الحمد لله رب العالمين .... إلى أن قال : إياك نعبد وإياك نستعين) (٧٤) فوجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى عطف الاستعانة على العبادة ، فدل ذلك على أنهما يشتركان في الحكم ، وهو العبادة والتعبد لله بذلك ، أيضاً : هذه الآية خبر يراد بها الإنشاء ، وكأن الله جل وعلا يقول : استعن بي إن أردت عبادتي ، والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ،وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم لإبن عباس: (وإذا استعنت فاستعن بالله) فوجه الدلالة من الحديث على الاستعانة عبادة من وجهين : الوجه الأول : أن قوله : (فاستعن) أمر ، وهذا أمر من رسول الله ، والرسول لا يأمر إلا بما يحب وما يحبه الله ، فينزل تحت مسمى العبادة . والوجه الثاني : أن التوحيد هو أن تستعين بالله وحده لا شريك له ، فهذا وجه يبين لنا أن الاستعانة عبادة ؛ لأنها لا تصرف إلا للمليك المقتدر جل في علاه ، إذن : الاستعانة عبادة ثابتة بالشرع ، ونأتي إلى القاعدة التأصيلية في مسائل التوحيد (توحيد الإلوهية) وهي : أن كل عبادة تثبت بالشرع فصَرْفها لله توحيد وصَرْفها لغير الله شرك . (٧٥)

وعودة إلى سيدنا يوسف عليه السلام الذي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ، في قوله تعالى : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) (٧٦) ؛ وذلك أنه لما قال يوسف عليه السلام لساقي الملك – حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك – (اذكرني عند ربك) نسي في ذلك الوقت أن يشكو الى الله ويستغيث به ويستعين وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ، فعوقب باللبث ، قال عبد العزيز بن عمير الكندي : دخل جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن فعرفه يوسف ، فقال : يا أخا المنذرين ! مالي أراك بين الخاطئين ؟! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر الطاهرين ، يقرئك السلام رب العالمين ويقول : أما استحيت إذ استغثت واستعنت بالآدميين ؟! وعزتي ! لألبثنك في السجن بضع سنين ؛ فقال : يا جبريل ! أهو عني راض ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالي الساعة ، وروى أبو سلمه عن أبي هريرة قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال " اذكرني عند ربك " ما لبث في السجن بضع سنين " قيل فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟! قيل : أما النسيان فلا عصمة لأنبياء عنه إلا في وجه واحد ، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه ، فإنهم معصومون فيه ؛ وإذا وقع منهم النسيان ، حيث يجوز وقوعه ، فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً ، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم ، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم ؛
قال صلى الله عليه وسلم : " نسي آدم فنسيت ذريته " قال : " إنما أنا بشر أنسى كما تنسون " (٧٧)

المبحث الثالث : القيم المذمومة في سورة يوسف

وهي القيم التي لم يقرها الشرع وتتعارض مع عقيدة المسلم ، ويحث الإسلام على تركها والابتعاد عنها والتحلي بالأخلاق الفاضلة وفيها ثلاثة مطالب .

المطلب الأول :

البغضاء والحسد :-

الحسد خلق ذميم ، مع أضراره بالبدن ، وإفساده للدين ، حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره ، فقال تعالى: (ومن شر حاسد إذا حسد) (٧٨) وناهيك بحال ذلك شراً ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" دب إليكم داء الأمم قبلكم : البغضاء والحسد ، هي الحالقة ، حالقة الدين ، لا حالقة الشعر ، والذي نفس محمد بيده ، لا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم " فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد ، وأن التحابب ينفيه ، وأن السلام يبعث على التحابب ، فصار السلام إذن

نافياً للحسد ، وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول .وقال الله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم) (٧٩)

وقال بعض السلف ، الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء ، يعني حسد إبليس لأدم عليه السلام ، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض ، يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله ، وقال بعض الحكماء : من رضي بقضاء الله تعالى لم يَسخطه أحد ، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد (٨٠) وها هم أخوة يوسف لم يرضوا بقضاء الله تعالى ، ولم يقنعوا بعطائه ، وقد هالهم وأفزعهم وأضرم الشيطان نار الحقد والحسد والبغضاء في قلوبهم ؛ بسبب محبة يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام ، ومن أعظم النعم من الله سبحانه وتعالى أن يحظى الابن برضا والديه ومحبتهم ، فكل ذي نعمة محسود ، إذ جعلهم الحسد والبغضاء والحقد يركبون مركب الجريمة ، فيكيدون لأخيهم من أبيهم كيداً كبيراً ، إذ كان يعقوب يلاحظ في يوسف إمارات النجابة ، ويحس بأنه سيكون وارث النبوة من بين إخوته ، وأن الله سيجتبيه ويفضله ، ولذلك كان أثيرا عنده وكان محل رعايته الزائدة ، ولا يكاد يستطيع مفارقته أو غيابه عنه ؛ وهذا ما أثار حسد سائر الإخوة عليه ، وعلى أخيه بنيامين ، وانصب الأمر

بشدة على يوسف ، لأنه كان محل الحظوة الكبرى وأكبر الشقيقين ، وصرح الأخوة فيما بينهم بما يدل على حسدهم لهما (٨١) .

وجاء في القرآن الكريم ذكر مقالتهم في ذلك ، فقال الله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إنا أبانا لفي ضلال مبين) (٨٢) وبعد ذلك تبدأ القصة ، لنرى يوسف الصبي يقص رؤياه على أبيه : قال سبحانه وتعالى : (إذ قال يوسف : لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ، قال يا بُني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للإنسان عدوّ مبين) (٨٣) كان يوسف صبياً ، وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ، وأقرب ما يراه الصبي ، حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حجرة أو بين يديه يطولها ، ولكن يوسف رآها ساجدة له ، متمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً ، والسياق يروي عنه في صيغة الإيضاح المؤكدة : " إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر "(٨٤) .. م يعيد لفظ رأى : " رأيتهم لي ساجدين " لهذا أدرك أبوه

يعقوب عليه السلام بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام ، لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك ، ولا تظهر بوادره إلا فيما بعد ، أمّا تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب ، ولهذا نصحه بألا يقص رؤياه على إخوته ؛ خوفاً أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير ، فيجد الشيطان ثغرة في نفوسهم ، فتمتلىء نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمراً يسوؤه ، قال سبحانه وتعالى : (قال : يابُني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) . (٨٥) ، ثم علل هذا بقوله : (إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين) . (٨٦) ، ومن ثَم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويُزين لهم الخطيئة والشر . (٨٧) ، ومن هذه الوصية نستفيد استحسان كتمان دلائل النعمة القادمة والمبشرات بها ، لئلا تُثير حسد الحاسدين ، وتحرضهم على فعل الشرور وتدبير المكايد ، واشتد حرص يعقوب على يوسف بعد هذه الرؤيا وزاد شغفاً وعناية به ، الأمر الذي ضاعف من حسد الإخوة .

وعندئذٍ تحول الحسد فيهم إلى مستوى تدبير مكيدة التخلص من يوسف ، فأتمروا فيما بينهم على قتله ، أو طرحه في البرية في مكان خالٍ حتى تأكله السباع ،لولا أن أخفهم حسداً وأخشاهم لله ، نصحهم بأن يلقوه في بئر من آبار البرية الواقعة على طريق القوافل ؛ لتلتقطه إحدى القوافل وتذهب به ، وبذلك يتخلصون منه ، دون أن يرتكبوا الجريمة الكبرى جريمة القتل ظلماً وعدواناً (والله غالبٌ على أمره) . قال سبحانه وتعالى : (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا ونحن عصبه إنّ أبانا لفي ضلال مبين ، أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) . (٨٨)

المطلب الثاني : الكذب :-

قال سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين : (ثُم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) . (٨٩)

وقال تعالى :(إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) .(٩٠)، وعن إبن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّابا " متفق عليه . (٩١) ، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أربعُ من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، من كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر " متفق عليه .(٩٢٠)

والكذب جماع كل شر ، وأصل كل ذم لسوء عواقبه ، وخبث نتائجه ، لأنه ينتج النميمة ، والنميمة تنتج البغضاء ، والبغضاء تؤول إلى العداوة ، وليس مع العداوة أمن ولا راحة ، ولذلك قيل : من قلّ صدقه قلّ صديقه . (٩٣)

وكما يكون الصدق والكذب في الأقوال يكونان في الأفعال ، فقد يصدق الناس في تعبيراتهم الفعلية ، وقد يكذبون ، فإذا كانت تعبيراتهم الفعلية مطابقة في دلالاتها للحقيقة والواقع ، فإنها تكون أفعال صادقة ، وإن كانت غير مطابقة فإنها تكون أفعالاً كاذبة.

فقد يفعل الإنسان فعلاً يوهم به حدوث شيء لم يحدث ، أو يُعبر به عن وجود شيء غير موجود ، وذلك على سبيل المخادعة في الفعل مثلما تكون المخادعة بالقول ، وربما يكون الكذب

في الأفعال أشد خطراً وأقوى تأثيراً من الكذب في الأقوال . (٩٤) ، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله (سبحانه وتعالى) لنا من أقوال وأفعال إخوة يوسف عليه السلام ، إذ جاؤا أباهم عشاءً يبكون بكاءً كاذباً ، وقالوا : ــ كذباً ــ يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وجاؤا على قميص يوسف بدمٍ كذب ، فجمعوا بين كذب القول وكذب الفعل ، قال الله تعالى : (وجاؤا أباهم عشاءً يبكون ، قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكه الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين ، وجاؤا على قميصه بدمٍ كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) . (٩٥)

فبكاؤهم فعل كذب ، قصدوا به التعبير لأبيهم عن حزنهم على يوسف الذي أكله الذئب بزعمهم ، وهم الجانون عليه إذ ألقوه في الجب ، وقصتهم التي أخبروا عنها قصةٌ مفتراة من عند أنفسهم ، والذئب بريء من دم أخيهم ، فأقوالهم فيها أقوالٌ كاذبة ، وتلطيخهم قميص يوسف بدم شاةٍ ذبحوها ليوهموا به صحة ما زعموه من أكل الذئب له فعلٌ كاذب والدم ليس دم يوسف بل هو دمٌ كذب ، وهكذا لفقوا عدة أكاذيب قولية وفعلية ليستروا بها ماجنوه على أخيهم . (٩٦)

المطلب الثالث : الكيد والمكر والإحتيال :-

يعني الكيد في اللغة " الخبث والمكر ... والكيد الإحتيال والإجتهاد " بمعنى أن الكيد إخفاء ما يُضمر الإنسان للآخر من فعل ، وينصرف الكيد أساساً إلى فعل الشر في الغالب ، وأكد هذا المعنى المفسر الطاهر بن عاشور في قوله : إن الكيد " يرادف المكر والحيلة ...إن الكيد أخص من الإحتيال وما ذلك إلا لأنه غلب استعماله في الإحتيال على تحصيل ما لو اطلع عليه المكيد لاحترز منه فهو احتيال فيه مضرة ما على المفعول به"

ومن ثَمَّ فإن الكيد فعلُ شيء في صورة غير مقصودة للتوصل إلى مقصود ، وفي سورة يوسف عليه السلام ثلاثة أنماط من الكيد ، وهي على النحو الآتي :

الكيد الأول : كيد إخوة يوسف ، وهو كيد شر .

الكيد الثاني : كيد امرأة العزيز ، وهو كيد شر .

الكيد الثالث : كيد يوسف لإخوته ، وهو كيد خير .

الكيد الأول : ولا ريب أن لكل كيد دوافعه ، وتكمن دوافع الكيد لدى إخوة يوسف في الوهم في الإحساس بالتمايز بين الأبناء ، إذ توهم إخوة يوسف أن يعقوب عليه السلام كان يمايز بينهم وبين يوسف وأخيه بنيامين ، قال تعالى : (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين). (٩٧) ، ولقد مر كيد إخوة يوسف بمراحل متعددة يكتنفها الإخفاء والإظهار على النحو الآتي :

١- التخطيط : وفيه يُخطط إخوة يوسف للتخلص من يوسف ، ويظهر أن قضية التخلص من يوسف يُعد أمراً مفروغاً منه ، ولكنهم اختلفوا أول الأمر في الكيفية التي يتم فيها التخلص من يوسف ، ثُم استقر رأيهم بعد ذلك على قرار واحد في التخلص من يوسف ، إما بقتل يوسف ، أو طرحه أرضاً أو إلقاؤه في غيابة الجب ، والهدف من ذلك تحقيق الغاية التي تُزيل دوافع الكيد ، وهو الإنفراد بمحبة الأب ، وصلاح حالهم في قوله تعالى : (أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين) . (٩٨) ، ويبدو أن أثر الدوافع كان قوياً وعنيفاً في نفوس إخوة يوسف ، ومما يدل على ذلك البدائل الثلاثة المطروحة ، ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن(القتل)

كان البديل الأول المطروح . وكان التركيب اللغوي يُعبر عن حركية الحدث ، إذ تتكون الآية الكريمة من مجموعة من الجمل الفعلية القصيرة المتلاحقة .

قال الله تعالى : (أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) . (٩٩)

٢- التنفيذ : ويلحق التخطيط التنفيذ ، وهو الإحتيال في استدراج يوسف إلى تنفيذ الكيد ، ويتم ذلك من خلال حلقتين :

(أ) ما قبل الإلقاء في الجب : ويشتمل على إظهار الحرص والمحبة والنصح ليوسف ، وإضمار وإخفاء الحقد عليه ،قال سبحانه وتعالى: (قالوا ياأبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ،قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون) . (١٠٠)

(ب) ما بعد الإلقاء في الجب : ويشتمل إظهار الحزن والبكاء على يوسف ، وإخفاء السرور ، قال تعالى :

(وجاؤا أباهم عشاءً يبكون) . (١٠١)

٣- الإتهام : ويشتمل كيد إخوة يوسف على اتهام الذئب بقتل يوسف ، قال تعالى : (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) . (١٠٢)

٤- الدليل : وهو القميص الذي لطخه إخوة يوسف بدم كذب ، قال تعالى : (وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون) . (١٠٣) ، إن كيد إخوة يوسف يكتنفه الإخفاء والإظهار ، فالتخطيط والتنفيذ والإتهام والدليل كلها تُمثل ظاهراً لا يُمثل الحقيقة ، وتحيُّل إلى باطن يُمثل الحقيقة ، التي تُمثل الوجه الآخر ، كما أن إلقاء يوسف في الجب يشتمل في الوقت نفسه على إخفاء يوسف ، غير أن إخراج يوسف من الجب يُمثل إظهاراً ، وكأن حياة يوسف تمر بمراحل متعددة فما أن يخرج من كيد ، حتى يدخل في كيد آخر ، إخفاءٌ وإظهار بكيفيّات متعددة .

الكيد الثاني : أما الكيد الثاني فإنه يلتقي مع الكيد الأول في كونه كيد شر ، وإذا كان إخوة يوسف قد خططوا للتخلص منه وإبعاده عنهم ، فإن إمرأة العزيز قد خططت هي الأخرى من أجل التواصل مع يوسف ، كما أن هذا الكيد تبعث على تحقيقه دوافع إمرأة العزيز وهي دوافع الإعجاب والإنبهار بشخصية يوسف وكمال جماله ، ويتم تحقيق هذا الكيد وفق المراحل الآتية :

١- التخطيط : بمعنى أن إمرأة العزيز قد خططت لتحقيق التواصل مع يوسف ، ويدل على ذلك عملية التنفيذ التي عرض لها القرآن الكريم .

٢- التنفيذ : إن تنفيذ الكيد الأول لايُشترط في تحقيقه رغبة الكائد والذي وقع عليه الكيد ، ولذلك تمكن إخوة يوسف من إلقاء يوسف في الجب ، أما مع إمرأة العزيز فإن تنفيذ الكيد لا يتحقق تماماً إلاّ بتوافق رغبة إمرأة العزيز ورغبة يوسف عليه السلام ، ولذلك كان الطرف الفاعل في هذه القضية المرأة ، والذي يقع عليه الفعل هو يوسف الذي يُعيق تحقيق هذه الرغبة بالإمتناع ، قال تعالى : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يُفلح الظالمون) . (١٠٤) ، ويظهر أن المراودة قد شابها قدرٌ

من امتلاك الآخر بالقهر ، بدليل تخلص يوسف بإستباقها إلى الباب ، قال تعالى : (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب). (١٠٥)

٣- الإتهام : وكما أن كيد إخوة يوسف قد اشتمل على إزاحة التهمه عن الجاني إلى غيره ، أي إزاحة تهمة الإخفاء من إخوة يوسف إلى الذئب ، فإن إمرأة العزيز تزيح تهمة المراودة عن نفسها وتسقطها على يوسف نفسه ، قال تعالى : (قالت ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلاّ أن يُسجن أو عذابٌ أليم) . (١٠٦)

٤- الدليل : لقد كان قميص يوسف عليه السلام دليلاً في كيد إخوة يوسف ، حين لطّخوا القميص بدمٍ كذب ، واتهموا الذئب في قتله ، وفي هذا الكيد يتحول قميص يوسف المقدود إلى دليل براءة يوسف، وعلى الرغم من أن قميص يوسف في الكيد الأول يُستخدم دليلاً بالدم دون إشارة الى تمزيقه ، لأن الآية القرآنية لم تعرض لتمزيق القميص ، فإن القميص في كيد إمرأة العزيز يكون مقدوداً ، ويتحدد تمزيقه من الخلف لتأكيد براءة يوسف ، قال تعالى : (قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُد من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين) (١٠٧) ، وقد تأكدت براءة يوسف من خلال ثلاثة طرق:

١- الشاهد الذي أرسى قواعد الإتهام والبراءة في الموقع الذي تحدد فيه تمزيق القميص ، قال تعالى : (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُد من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) . (١٠٨)

٢- العزيز نفسه الذي برّأ يوسف حين رأى قميصه مقدوداً من دبر ، وأكد أن هذا من كيدكن، قال تعالى : (فلما رأى قميصه قُد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) . (١٠٩)

٣- لوحة تأكيد البراءة من خلال نسوة المدينة ، واعتراف إمرأة العزيز بمراودتها إياه وإصرارها على ذلك ، وتكرارها . قال تعالى : (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلاّ ملك كريم ، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكون من الصاغرين) . (١١٠)

الكيد الثالث : (كيد خير وتتجلى مظاهر الإخفاء والإظهار في كيد يوسف لإخوته ، فقد عرف يوسف إخوته وهم له منكرون ، وكان لدى يوسف دافع خطط له ونفذه ، وكان يهدف إلى رأب الصدع مع إخوته وأن يُحقق التواصل مع أسرته كامله .(١١١)

ملخص البحث وتوصياته :

بعد هذا العرض للقيم المتضمنه في هذه السورة المباركة ، والحُجة البالغة التي حققت الكثير من الفوائد والعبر ، التي تنفع المسلم في دنياه وآخرته وتوصيه بالتمسك بالقيم الفاضلة المحمودة التي أقرها الشرع الحنيف ، وتجنب القيم المذمومة التي تُعد من معاول الهدم للشخصية المسلمة ، وقد أبرزت السورة الكريمة عدة قيم محمودة (حسب استقراء الباحث) على المسلم أن يتمسك بها ، وإن كان في بعضها العناء والمشقة ، كما أبرزت عدة قيم مذمومة على المسلم أن يتجنبها ، وإن كان ذلك صعباً عليه ؛ لأنها تسري في نفسه سريان الدم في العروق ، وهذا كله يهون ما دام الأمر في طاعة الله ومرضاته سبحانه وتعالى .

فقد أبرزت السورة الكريمة قيمة الصبر في عدة مواقع ، والعبر المستفادة من ذلك إذا ابتلي الإنسان بمصيبة الصبر فاليصبر ، واليعلم أن الأنبياء وهم أفضل الخلق ابتلوا بلاءً عظيماً

فصبروا على المصائب دون جزع أو تشكي ، قال الله تعالى على لسان يعقوب : (فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون) . (١١٢).

كما حثت السورة الكريمة المسلم الإكثار من الإستغفار على كل أحواله ، فعن إبن عباس ــ رضي الله عنه ــ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب " . (١١٣)، كما أن الدعوة إلى الله ــ عز وجل ــ من أعظم الأعمال الصالحة ومن أشرف مقامات العبودية للموحدين والمؤمنين وهي طريقة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن أراد الخير لنفسه ولمجتمعه فاليكن داعياً إلى الله ــ عز وجل ــ بالتي هي أحسن ، وبالحكمة والموعظة ، فسيدنا يوسف عليه السلام لم ينس الدعوة إلى الله حتى وهو في السجن ، فكيف بمن هو حُرٌ يملك المال والنفس والصحة ، قال تعالى : (إنّي تركتُ ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) . (١١٤) ، لذا يجب على المسلم ألاّ ييأس في الدعوة إلى الله ، بل يبذل جهده ويسأل الله التوفيق فيوسف ــ عليه السلام ــ لم ييأس من الدعوة إلى الله ، وكان ثمرة ذلك اسلام إمرأة العزيز ، فهي التي أرادت أن تكون سبباً لهلاكه ، فكان سبباً في هدايتها .

وتضمن البحث في هذه السورة الكريمة ابراز قيمة الصدق في كل ما تعرض له سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ لأن المسلم يستدر رحمة الله وعطفه بالصدق في القول والعمل وطلب الرحمة في دعائه ،

والإعتراف بالخطأ أمام الله ، والوقوف أمامه موقف الذليل المنكسر ، فعلى المسلم إن كان صادقاً أن يدرأ

عن نفسه الشبهات والتهم بما يستطيع من قول أوفعل ، ففي قصة يوسف وإخوته آيات لمن يسأل عن الصدق

والتضحية والخوف من الله ، فسيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ أراد أن يُثبت براءته فرفض الخروج من السجن عندما دعاه الملك ، وهذا يؤكد صدقه وصبره واحتسابه الأجر من عند الله سبحانه وتعالى ، فنُعت بصفة الصّديق قال تعالى : (يوسف أيها الصّديق) . (١١٥) ، وهذه أفضل منزلة بعد النبوة هي الصّديقية ، ومن الأمور التي أظهرتها هذه السورة الكريمة في هذه القصة الخالدة ، العفو والصفح ، وهي من الصفات المحمودة للمسلم ، ولنا مع قصة يوسف ــ عليه السلام ــ وقفة ، فهو صفح عن إمرأة العزيز وعفا عنها ،

وعفا عن إخوانه ، وعفا ــ عليه السلام ــ عن كل شيء وصفح ، فأتاه الله ــ عز وجل ــ عزاً بسبب هذا كما صح عنه عليه الصلاة والسلام : " وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً " (١١٦) ، وقال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ : " تسعة أعشار حسن الخلق التغافل " فقد جُعل يوسف قدوة لنا في الدعوة إلى الله والصبر ، والإحتساب والعفاف والعفو عند المقدرة ، وقد قيل : أفضل عفو ما كان عند المقدرة ، كذلك من صفة الأنبياء الكرام الصفح والعفو ، وعدم ذكر الذنب والخطأ أو التعريض به ، فالكريم يصفح وينسى الخطأ ولا يذكره ، كما تضمنت السورة الكريمة جملة من النصائح والإرشادات على لسان يعقوب ــ عليه السلام ــ

ومواقف كثيرة تدل عل الأمانة ، وقو الحق والإعتراف به والنهي عن البغضاء والحسد ، والكذب ، والكيد والمكر والإحتيال ، ليستفيد المسلم من المفاهيم الإيجابية ، ويستنكر المواقف السلبية ويعمل على الإبتعاد عنها وعدم ممارستها .

وأخيراً وليس آخراً ، فإن الباحث يوصي نفسه كما يوصي إخوانه المسلمين بتقوى الله وطاعته ، والمحافظه على الأمانة التي إئتمننا الله عليها ، والصدق مع الله ، بالإعتماد عليه الواحد الأحد في كشف الضر ، فلا ناصر ولا معين ولا معافي ولا مشافي ، ولا خالق ولا رازق ولا مُعز ولا مذل ولا كاشف الهم إلا هو سبحانه وتعالى ، وعلينا أن لا نشمت بالآخرين ، ولنحمد الله ، فيوسف ــ عليه السلام ــ لم يشمت بما حل بإخوته من فقر ، وهم الذين ظلموه وعقوا أباهم به ، ولنستعيذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ومن شر الحاسدين ، ولنتوكل على الله ولا نتوكل على عبدٍ من عبيده ، ونستغفر الله آناء الليل وأطراف النهار ، لنا ولإخواننا المسلمين والدعاء لهم بظهر الغيب حتى يُقال لنا ، ولك مثل ذلك ، وعلينا معشر المسلمين أن نأخذ العبرة والعظة من قصص القرآن الكريم ؛ حتى تكون دافعاً لزيادة الإيمان عندنا قال الله تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأُلي الألباب) . (١١٧) ، والبعد عن إطلاق التهم جزافاً على الآخرين حتى يتضح الحق وتستبين الحقيقة ، اللهم كما أسمعت آذاننا أن تُسمع قلوبنا ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هـــوامش البحث

(١) الناشف ، عبد الملك (١٩٨١) القيم وقابليتها للتعلم والتعلـــيم ، منشـــورات معهـــد التربيـــة للأونروا ، مجلة المعلم العدد (١)

(٢) بلبشير ، محمد (٢٠٠٧) قيم القرآن تؤلف بين البشر ، ندوة في جامعة محمد الخامس بالرباط في ٢٠٠٧/٣/٢٢م

(٣) غنيمات ، مصطفى (٢٠٠٨) القيم الغربية المعاصرة من منظور فلسفي ، مجلة جامعة الملك سعود للدراسات الإسلامية / م٢٠ ص ٣٨١

(٤) العودة ، سلمان (٢٠٠٦) قوة الأخلاق ، نقلاً عن موقع الإسلام اليوم www. Islam way .com

(٥) سورة الصف : الآية ٢ و ٣ .

(٦) المحلي ، جلال الدين ، والسيوطي ، جلال الدين (٢٠٠٢) ، تفسير الجلالين ، ط١ ، مكتبـــة الصفا ، القاهرة : ص ٢٢٦

(٧) قطب سيد (١٩٩٦) في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ط ٢٥ ، دار الشروق ، القاهرة : ص ١٩٤٩

(٨) الصابوني ، محمد علي (١٩٨١) صفوة التفاسير ، القســم الســادس ، ط ١ ، العمارســة ، الرياض : ص٥

(٩) القرطبي ، محمد أحمد (١٩٧٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج٥ ، دار الشعب ، القـــاهرة : ص ٣٣٤٧.

(١٠) ابن كثير ، اسماعيل (١٩٦٩) تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، دار إحياء التراث العربـــي ، بيروت : ص٤٦٦.

(١١) قطب ، سيد ، مرجع سابق ، ص١٩٥١ – ١٩٥٢ .

(١٢) قطب ، سيد ، مرجع سابق ، ص ١٩٥١.

(١٣) حبنكه ، عبد الرحمن حسن (٢٠٠٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ج٢ ، دار القلم : دمشق ص ٣٧١ .

(١٤) النووي ، الإمام الحافظ محي الدين (١٩٧٠) منهل الواردين شرح رياض الصالحين ، ج١ ، دار العلم للملايين : بيروت ص١٧٢. حديث رقم ١٨٠

(١٥) حبنكه ، مرجع سابق ، ص ٣٧٦ .

(١٦) سورة المائدة : الآية ٧٨ .

(١٧) سورة يوسف : الآية ٥ .

(١٨) قطب ، سيد (١٩٧٢) في ظلال القرآن ، المجلد الرابـــع ، دار الشـــروق : بيـــروت ص ١٩٧١.

(١٩) الصابوني ، محمد علي (١٩٨١) صفوة التفاسير ، القسم السادس ، دار القرآن الكـــريم : بيروت ص ٨ .

(٢٠) السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر (٢٠٠٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنـــان ، دار الحديث : القاهرة ص ٤١٤.

(٢١) هذا الحديث رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وقد ضعفه العراقي والسيوطي في الجامع الصغير ، والعجلوني في كشف الخفاء ، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٣٦ (حديث رقم ١٤٥٣) وفي صحيح الجامع برقم ٩٤٣ ، وأورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ج ٢
(٢٢) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ج١ ص ٦٤٥ – ٦٤٦
(٢٣) سورة يوسف : الآية ٢٣ .
(٢٤) القرطبي ، محمد بن أحمد (د . ت) الجامع لأحكام القرآن (٣٣) ، دار الشعب : دمشق ص ٣٣٩١ / ٣٣٩٦.
(٢٥) سورة يوسف : الآية ٢٤
(٢٦) في ظلال القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ١٩٨١ ، ١٩٨٢ .
(٢٧) النووي ، مرجع سابق ، ص ٧٠ . رقم الحديث ٢٥
(٢٨) سورة آل عمران : الآية ١٤٢ .
(٢٩) الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧٦ .
(٣٠) سورة يوسف : الآية ٨٤ .
(٣١) سورة يوسف : الآية ٢٠ .
(٣٢) سورة يوسف : الآية ٣٣ .
(٣٣) في ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ص ١٩٨٥ .
(٣٤) الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ص ٣٤٤٨ .
(٣٥) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥٢٦ ، ٥٣٠ .
(٣٦) سورة التوبة : الآية ١١٩ .
(٣٧) النووي ، مرجع سابق ، حديث ٥٤ .
(٣٨) الماوردي ، علي بن محمد (د . ت) أدب الدنيا والدين ، المكتبة التوفيقية : القاهرة ص ٢٢٦ .
(٣٩) سورة يوسف : الآية ٥٠ .
(٤٠) الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ص ٣٤٣٦ – ٣٤٣٧ .
(٤١) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ج٢ ص ٥٨١ ، ٥٨٢
(٤٢) سورة يوسف : الآيات ٢٣ – ٢٥
(٤٣) طبارة ، عفيف عبد الفتاح (١٩٧٧) اليهود في القرآن الكريم ، دار العلم للملايين : بيروت ، ص ١٨٥ .
(٤٤) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٥٢٤ .
(٤٥) صفوة التفاسير ، مرجع سابق ، ص ١٤ ، ج١٢ .
(٤٦) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، مرجع سابق ص ٣٤٠١ .
(٤٧) تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ص ٤٧٥ ، ج٣ .
(٤٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، مرجع سابق ص ٤١٨ .
(٤٩) سورة الحجر : الآية ٨٥ – ٨٦ .
(٥٠) سورة المائدة : الآية ١٣
(٥١) الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ص ٣٣٨٧
(٥٢) سورة يوسف : الآية ٨٨

(٥٣) سورة يوسف : الآية ٨٩
(٥٤) سورة يوسف : الآية ٩٠.
(٥٥) سورة يوسف : الآية ٩٠.
(٥٦) سورة يوسف : الآية ٩١.
(٥٧) سورة يوسف : الآية ٩٢ .
(٥٨) في ظلال القرآن الكريم ، مرجع سابق ص ٢٢٦ ، ٢٢٧
(٥٩) رواه الترمذي رقم (٢٤٩٩) ، وابن ماجه رقم (٤٢٥١) ، والدارمي رقم (٢٧٢٧) .
(٦٠) سورة فصلت : الآية ٦ .
(٦١) سورة الزمر ٥٣ ، ٥٤
(٦٢) الأخلاق الإسلامية ، ج١ ، ص ٦٩٢ – ٦٩٥
(٦٣) في ظلال القرآن الكريم ، مرجع سابق ص ١٩٥٠.
(٦٤) سورة يوسف : الآية ٩٥ .
(٦٥) سورة يوسف : الآية ٩٧ .
(٦٦) صحيح البخاري ، كتاب المظالم والغصب ، رقم الحديث (٢٢٦٩)
(٦٧) سورة يوسف : الآية ٩٨ .
(٦٨) في ظلال القرآن الكريم ، ٢٠٢٨
(٦٩) سورة يوسف : الآية ٩٢ .
(٧٠) الجامع لأحكام القرآن : ص ٣٤٨٦
(٧١) الجامع لأحكام القرآن : ص ٣٤٨٧
(٧٢) مخيمر ، فؤاد علي (١٩٨٨) المنهاج الكامل في بناء المسلم المعاصر ، المؤسسة العربية الحديثة : القاهرة ص ٥١ – ٥٣ .
(٧٣) سورة يوسف : الآية ١٨ .
(٧٤) الفاتحة : الآية ٢ ، ٥ .
(٧٥) عبد الغفار ، محمد حسن (د . ت) الاستعانة عبادة بالكتاب والسنة ، أخذت بتاريخ ٢٠٠٩/٢/٢٧ ، الموقع

http : audio . islamweb , net audio
index . php ? page = Full content & audio = 178749

(٧٦) سورة يوسف : الآية ٤٢ .
(٧٧) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، مرجع سابق ص ٣٤٢٤ ، ٣٤٢٦
(٧٨) سورة الفلق : الآية ٥ .
(٧٩) سورة فصلت : الآية ٣٤
(٨٠) أدب الدنيا والدين ، مرجع سابق ، ص ٢٣١ – ٢٣٢
(٨١) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٨٠٩ – ٨١٠ .
(٨٢) سورة يوسف : الآية ٨ .
(٨٣) سورة يوسف : الآية ٤ – ٥ .
(٨٤) سورة يوسف : الآية ٤ .
(٨٥) سورة يوسف : الآية ٥ .

(٨٦) سورة يوسف : الآية ٥ .
(٨٧) في ظلال القرآن مرجع سابق ص (١٩٧١) .
(٨٨) سورة يوسف : الآيات ٨ – ١٠ .
(٨٩) سورة آل عمران : الآية ٦١.
(٩٠) سورة النحل : الآية ١٠٥ .
(٩١) النووي ، ج٢ ، مرجع سابق حديث ١٥٤٠.
(٩٢) النووي ، ج٢ ، مرجع سابق حديث ١٥٤١.
(٩٣) أدب الدنيا والدين ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤.
(٩٤) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ص ٥٢٩ .
(٩٥) سورة يوسف : الآيات ١٦ – ١٨ .
(٩٦) الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥٣٠ .
(٩٧) سورة يوسف : الآية ٨ .
(٩٨) سورة يوسف : الآية ٩.
(٩٩) سورة يوسف : الآية ٩ ، ١٠ .
(١٠٠) سورة يوسف : الآيات ١١– ١٤ .
(١٠١) سورة يوسف : الآية ١٦ .
(١٠٢) سورة يوسف : الآية ١٧ .
(١٠٣) سورة يوسف : الآية ١٨ .
(١٠٤) سورة يوسف : الآية ٢٣ .
(١٠٥) سورة يوسف : الآية ٢٥.
(١٠٦) سورة يوسف : الآية ٢٥ .
(١٠٧) سورة يوسف : الآية ٢٦ .
(١٠٨) سورة يوسف : الآيات ٢٦ ، ٢٧ .
(١٠٩) سورة يوسف : الآية ٢٨
(١١٠) سورة يوسف : الآيات ٣٠ – ٣٢ .
(١١١) الـــوائلي ، كـــريم (٢٠٠٦) الإخفـــاء والإظهـــار فـــي ســـورة يوســـف pnlpit@alwatanvoice.com
(١١٢) سورة يوسف : الآية ١٨.
(١١٣) أخرجه أبو داوود (ح ١٥١٨) وابن ماجه (ح ٣٨١٩)
(١١٤) سورة يوسف : الآية ٣٦ ، ٣٧
(١١٥) سورة يوسف : الآية ٤٦ .
(١١٦) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب استحباب العفو والتواضع (حديث ٤٦٨٩)
(١١٧) سورة يوسف : الآية ١١١ .